

الإرهاصات الأولى

لحوار الأديان من

خلال الأمير عبد القادر

الملخص:

إن أكبر عائق للتحاور والتعايش بين الأفراد والجماعات كثيرا ما يكون ذا طابع نفسي فكيف أتجاوز وأنا مستغل أو مضطهد(بفتح الغين و الهاء) إذا كان هذا الذي يضطهدي يحمل قيما عقائدية مختلفة عن القيم التي أحملها، وديانته تختلف عن ديانتي. من هنا تبرز أهمية الأمير عبد القادر بكل ما تحمله شخصيته من معنى (بطل، رجل دين، محارب، متصوف..) ولكنه محاور من الدرجة الأولى. وهو في قلب الأزمة أسيرا في يد المستعمر الفرنسي، وفي موقع انجيب عن اتهام وإساءة خطيرين للدين الإسلامي الخنيف من قبل أحد القساوسة الفرنسيين، بين الأمير العناصر المشتركة بين جميع الديانات وبكل عقلانية وكل هدوء، انطلق من الاعتراف بجهله لحقيقة الفرنسيين المسيحيين، واعترف أنه كان ينظر إليهم من خلال المخاربين فقط، ثم بين الخصائص السامية التي تجمع كل الديانات السماوية، ودون ردود أفعال وبحكمة متعالية يتحدث عن الإنسانية، والرحمة الحمديدية التي تشمل الكون كله، ومكارم الأخلاق خاصة عدم إيذاء الناس والصبر على أذاهم والتغافل عن زللهم.

لا شك أن الحوار ضروري للتعايش بين مختلف الثقافات والعقائد سواء على مستوى المجتمع الواحد أو على مستوى مختلف المجتمعات والعقائد والثقافات والحضارات. ولما كان شعار السلم والسلام من المطالب الحيوية والتي قد نجد لها نظريا تتضمن كل الخطابات -بما فيها الخطاب الديني الأكثر راديكالية- وإذا كان خطاب السلم

والسلام يقتضي الحوار بين الديانات ، فإن الإشكالية التي نواجهها في هذا المجال هي: كيف نوفق بين الحوار بين الديانات كضرورة للتعايش؟ وبين النزعة الشمولية التي يتميز بها كل معتقد؟

هذه الإشكالية ولدت أزمة بالنسبة للعرب والمسلمين تتمثل في قلق يشبه إلى حد بعيد القلق الوجودي ، وبالتالي يخلق معاناة إنسانية وهواجس الاختلاف العقائدي الذي قد يجسد في الفوارق الحضارية.

لقد ارتأينا لمعالجة هذه الإشكالية العودة إلى القرن التاسع عشر وبالضبط إلى الأمير عبد القادر وهو في قلب الأزمة وفي حضارتين مختلفتين وفي طرفين مختلفين، مرحلة مقاومة الاستعمار الفرنسي وما يحمله من قيم دينية وحضارية وكيف كان يتصور الأمير هذه القيم ، والمرحلة التي كان في الأسر بفرنسا وكيف أصبح يتصور هذه القيم، بل كيف يجعل من هذه الأزمة- وهو في الأسر وبلاده تحت وطأة الاستعمار - مدخلا للحوار الديني والحضاري.

الاعتراف بالجهل

هنا ينطلق من الاعتراف بأنه لم يكن يعرف شيئا عن الفرنسيين ، حيث يقول الأمير وهو بفرنسا: "حينما بدأت مقاومة للفرنسيين كنت أظن أنهم شعب لا دين له، ولكن تبينت غلطتي. وعلى كل حال فإن مثل هذه الكنائس ستقنعني بخطئي.." (1).

إن هذه المقولة للأمير تبين لنا أن من أهم معوقات الحوار بين الأديان والثقافات عدم معرفة كل طرف للطرف الآخر المعرفة اللازمة، وبالتالي بناء تصورات خاطئة وأحكام عامة ، وينتج عن هذا التصور الخاطئ أو الناقص انسداد أبواب التفاهم وصعوبة بل استحالة التحوار والتعايش ليحل محلها الصدام والصراع.. والشيء نفسه يقال اليوم على بعض الغربيين الذين يربطون الدين الإسلامي الحنيف بالإرهاب.

إن منهجية الحوار تقتضي أولاً أن ينطلق المحاور من الاعتراف بنقصه وجهله حيث يذكرنا موقفه هنا بالفيلسوف اليوناني الشهير "سقراط" (كل ما أعرفه هو أنني لا أعرف شيئاً). وإن كانت هذه المقولة قد تؤخذ على معنى آخر ، فإننا نوظفها هنا لغرض تبيان مدى التطابق بين المنهج الفلسفي ومنهج الأمير من حيث الروح العلمية والتواضع المعرفي .

الحوار الهادئ

إن الأمير عبد القادر في خضم الأزمة وهو في قلب السجن والأسر بـ"أمبواز" في فرنسا، وبرصانة وهدوء، وفي مقابل هجوم عنيف على الدين الإسلامي واتهام هذا الدين الحنيف بأنه يبيح الغدر ولا يقبح مخالفة الوعد، وأكثر من ذلك فإن هذا الاتهام للدين الإسلامي يصدر عن أحد القساوسة الكبار(2)

في خضم كل هذا نجد الأمير يرد في كتاب أو رسالة تحمل عنوان "المقراض الخاد لقطع لسان منتقص دين الإسلام بالباطل والإلحاد".

نتوقف هنا مع هذا العنوان الذي يبدو من خلال عباراته أنه يحمل عنفاً وتجرعاً وشتماً أو على الأقل إساءة لمن سبق بمثلها وفق القاعدة المشهورة، ولكن بمجرد أن نفتح الكتاب نجد شيئاً مخالفاً تماماً ، ويزداد تعظيمنا لهذا الرجل العظيم رجل يمثل التعاليم الدينية والأخلاقية، ويذكرنا بالغزالي-حجة الإسلام-وهو يدون في كتابه "إحياء علوم الدين" ويذكرنا بكبار الفلاسفة الذين لم تؤثر فيهم لا الأحداث ولا الحروب.

لقد أكد أن الدين واحد ، لكن الشرائع التي جاء بها الأنبياء اختلفت بكيفية العبادات باختلاف العصور وتطور المجتمعات لكن الدين واحد من آدم إلى محمد-عليهما السلام- فكل الأنبياء كانوا يدعون إلى توحيد الله وتعظيمه وحفظ النفس والمال والعقل... (3).

إن هذه الفكرة التي توحد الأديان وتجعلها مكتملة لبعضها البعض، نجدها في الإسلام وعند المتصوفة على وجه الخصوص ، غير أنها موجودة أيضاً لدى الفلاسفة الظواهريين (الفيثومينولوجيين) حيث يقول إيدموند هوسرل: "إن الله يرفع التاريخ ، وكل نبي

يكشف عن حقيقة يكملها النبي الذي بعده حتى تكتمل النبوة في آخر الأنبياء وتكتمل الحقيقة". (4)

لقد رتب الكتاب على مقدمة و ثلاثة أبواب حيث بين إثبات الألوهية وربطها بالكون وما يزينه من أرض وسماء وبدائع الحكم ، كما ربط الألوهية بالإنسان وأسرار خلقه وأنه المقصود من وراء كل ما خلقه الله وأن الكون كله خلق من أجله. (5)

نلاحظ هنا أنه إلى جانب المنهجية المتناسقة والترتيب المتناسق بطريقة تكاد تكون محض أكاديمية، ملامح إمكانية الحوار بين الديانات عموماً وبين الإسلام والمسيحية على وجه الخصوص.

مظاهر الحكمة

وهو يحاور بكل هدوء واطمئنان نجد مخاطب العقل البشري عموماً وبوعي الفيلسوف المتشبع بالحكمة يتحدث عن الإنسان الذي هو محور كل عملية حضارية الإنسان أي إنسان مهما كانت ديانتها ومهما كان انتماءه وجنسيته ألم يتحدث في موقف آخر، بعد أن وقف إلى جانب المسيحيين فيما يعرف بحوادث 1860 في الشام "إنه سلوك فرضه الإسلام ويستجيب لحقوق الإنسانية" (6).

ويتحدث على طريقة الفلاسفة المسلمين الذين جمعوا بين الحجة العقلية والحجة النقلية لإثبات النبوة والرسالة الإسلامية، ويتحدث عن الرسول الكريم محمد (ص) بوصفه رحمة ليس فقط لمن تبع دينه بل لمن دخل فيه ومن لم يدخل فيه وهنا تظهر الملامح الصوفية الإسلامية للأمير ، فالرحمة هي الحقيقة الحميدة التي تشمل الكون كله ، فحقيقة محمد هي الرحمة التي وسعت كل شيء وعمت حتى أسماء الله. (7)

أهمية القيم الأخلاقية

في صلب موضوع الرسالة أو الكتاب الذي وضعه الأمير من أجل تبين ما ورد في الشرع الإسلامي من وجوب الوفاء والأمر به، وتحريم الغدر والحث على الصدق وتحريم الكذب

مهما كانت الظروف ،حيث اعتمد -الأمير- على آيات قرآنية صريحة وبعض الأحاديث النبوية وأقوال الفقهاء والحقائق التاريخية.(8)

إن أهم النقاط التي نستنتجها في هذا الباب هو تركيزه على القيم الأخلاقية أو ما يسمى عنده "مكارم الأخلاق". ويفهم الأمير من الحديث الشريف "بعثت لأتمم مكارم الأخلاق" أن الأخلاق الحميدة كانت عند الأنبياء السابقين، "إن الأنبياء قبله(قبل محمد(ص)) بعثوا بمكارم الأخلاق، وبقيت عليهم بقية، فبعث بما كان معهم، وبتمامها"(9) إن الحوار الديني الذي بدأت إرهاباته مع الأمير عبد القادر الذي كان يخاطب رجل الدين المسيحي- ومن خلاله كل المسيحيين "الغربيين"- يتميز بالتأكيد على أن رسالة الأنبياء متواصلة ومتكاملة بل إن الديانات السماوية واحدة باعتبار مصدرها واحد، وهنا تتجسد ملامح الفكر الصوفي الإسلامي في النظرة إلى الديانات السماوية كمعتقد وكفلسفة حياة.

ومن الخصائص الأخلاقية التي ركز عليها الأمير -والتي يعمل عليها كثيرا المتصوفة-: **التغافل عن زلل الناس** وهو يقصد زلات الإنسانية وليس فقط زلات من ينتمي إلى المعتقد نفسه الذي ينتمي إليه المسلم ،وهي نقطة رئيسية لإتمام الحوار والتعايش سواء بين الأفراد أو بين الجماعات والثقافات والعقائد المختلفة ، ومن هنا يتبين البعد الإنساني الخالص في خطاب الأمير.

تحمل الأذى يؤكد فيه الأمير على ضرورة تحمل أذى الناس -مهما كانت عقائدهم طبعاً- وهي قيمة أخلاقية يتصف بها العظماء ولكنها أيضا ضرورية في التربية الصوفية لأن الذي لا يصبر على الناس ولا يتحمل أذاهم لا يستطيع التواصل والتعايش معهم وبالتالي عدم تحمل الأذى ينتج عنه رد فعل عنيف وهنا يحدث الصراع والعنف وكل المظاهر الصدمية التي نراها اليوم على مستوى الأفراد وعلى مستوى الجماعات.

وبالمقابل —أي بمقابل تحمل الأذى— هناك قيمة أخلاقية أخرى تكملها وهي عدم إيذاء الناس. كما يتحدث عن "أمهات مكارم الأخلاق" وهي: الحكمة والشجاعة والعفة والعدل. وهي مشتركة بين جميع الأديان.

إن المعنى القريب الذي يفهم من رسالة الأمير —وهو يرد على من اتهم الدين الإسلامي الخفيف بالعدو— هو: كيف يغدر بك من هو منهى عن إيذائك وفي الوقت نفسه مطالب بل مستعد لتحمل إيذائك.

إن هذه القيم الأخلاقية التي هي ركن أساسي في التربية الصوفية على وجه الخصوص، وتجسدها في سلوك الأمير عمليا وهو في قلب الأزمة والمعاناة، جعلت خطابه خطابا عالميا وإنسانيا بامتياز، وجعلت منه موضوع احترام وتقدير من طرف العديد من الشخصيات الأوروبية وغيرها ولا يزال يكرم إلى يومنا هذا على أساس أنه رجل حوار وصاحب خطاب إنساني ومنادي "بمقوق الإنسانية" (10)

إن ما دفعنا إلى الحديث عن الأمير عبد القادر ونحن بصدد الحديث عن التسامح والحوار بين الحضارات والديانات في القرن الواحد والعشرين، هو كونه يمثل الصورة الكاملة للشخصية الاجتماعية التي تتحقق بها هذه المطالب كلها، ليس فقط كمتصوف بل كرجل دين وسياسة ومحارب، إن الخصائص السمحة للدين الإسلامي، والخصائص الإنسانية، ومطالب الحوار كلها متوفرة في شخص الأمير. أكثر من ذلك أن هذا الموقف الإنساني يصدر منه وهو في قلب الأزمة وهو يواجه مستعمرا و"عدو في الدين"، وهو يرد على اتهام خطير للدين الإسلامي (الغدر والخداع)، بل بعد أن أخلفت فرنسا وعدها له على يد "الماريغال بيجو" "أخبرك إخبار صاحب حقيقي لك أنه ربما تمضي سنون عديدة ولا يتيسر لك التوجه إلى المواضع التي طلبتها. وإن سليت نفسك بالأمان الباطلة فإن ذاتك تضرير في أشد الكدر." (11)

إن هذه الصورة المصغرة لبداية الحوار والتسامح عند الأمير عبد القادر -خطابا وسلوكا- أردنا أن نختصرها في بعض ما جاء في "المقراض الحاد" بينما الواقع أن موقفه وسلوكاته ومؤلفاته -خاصة وهو في الشام- كلها تدل على التسامح والحوار وسعة الصدر، وفي الوقت نفسه المواقف البطولية والثبات والشموخ حتى لا يفهم من البعض أن هناك ضعف أو استسلام، فهذا هو يرد على الماريشال بيجو بكل قوة وطمأنينة "لو جمعت فرنسا كل سائر أموالها ثم خيرتني بين أخذها وأكون عبدا وبين أن أكون حرا فقيرا معدما، لا اخترت أن أكون حرا فقيرا. فلا تراجعوني بمثل ذلك الخطاب فإنه ليس عندي بعد الخطاب جواب." (12).

الهوامش:

- * عبد الوهاب بلغراس ، باحث دائم في المركز الوطني للبحث في الأنثروبولوجيا الاجتماعية و الثقافية ، وهران. CRASC.
- 1- فؤاد صالح السيد، "الأمير عبد القادر متصوفا وشاعرا" المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر 1985 ص: 11.
- 2- بديعة الحسني الجزائري، "فكر الأمير عبد القادر" -حقائق ووثائق-، دار الفكر للطباعة والتوزيع والنشر، دمشق، سوريا، 2000. ص: 79، 80.
- 3- الشيخ بوعمران، "الأمير والتسامح الإسلامي" مجلة الدراسات الإسلامية -المجلس الإسلامي الأعلى- العدد 5 الجزائر ، جوان 2004
- 4- حسن حنقي، "فينومينولوجيا الدين عند هوسرل" مجلة الفكر المعاصر ، العدد 65 ، الهيئة المصرية العامة ، مصر، جويلية 1970 ، ص: 18.
- 5- الأمير عبد القادر "المقراض الحاد لقطع لسان منتقص دين الإسلام بالباطل والإلحاد"، دار الطاسيلي للنشر والتوزيع، الجزائر 1989.
- 6- CHARLES-HENRI CHURCHILL, « La vie de Abdelkader » traduction de Michel Harbatt ; SNED, Alger, 1971, p: 320.
- 7- الأمير عبد القادر ،المواقف الروحية والفيوضات السبوحية"تحقيق عاصم الكيالي ، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 2004، ص: 160 (الموقف 89).
- 8- محمد بن الأمير عبد القادر "تحفة الزائر في تاريخ الجزائر والأمير عبد القادر" تحقيق ممدوح حقي، ط2، دار البقطة العربية للتأليف والترجمة والنشر، 1964... ص544.
- 9- المرجع نفسه: ص545.
- 10- آخر تكريم رسمي للأمير تم بمركز الأمم المتحدة بجنيف كرائد لحقوق الإنسانية سنة 2006.
- 11- محمد بن عبد القادر الجزائري، المرجع السابق، ص541.
- 12- المرجع نفسه: ص542.